كيف تشكل اللغةُ التفكير

(اللغة التي نتحدث بها تؤثر تأثيراً جوهرياً في نظرتنا إلى العالم)(*)

❑ ليرا بوروديتسكي*
❑ ترجمة: عياد عيد **

كنت أتحدث إلى طفلة بعمر خمس سنوات من بورمبورو (منطقة غير كبيرة غرب جزيرة كيب يورك شمالي أوستراليا، يقطنها الأبوريغينيون). طلبت منها أن تشير إلى جهة الشمال، ففعلت ذلك بلا تردد، وأكدت بوصلتي صحة دلالتها بدقة تامة. طرحت السؤال نفسه بعد مرور بعض الوقت في محاضرة في جامعة ستانفورد على علماء بارزين من أصحاب الجوائز والميداليات على إنجازاتهم العلمية. رجوتهم أن يغمضوا عيونهم كي لا يشاهدوا تصرفات مجاوريهم واقترحت أن يشيروا إلى جهة الشمال. امتنع الكثيرون منهم من فورهم، بينما راح آخرون يفكرون بعض الوقت ثم يشيرون إلى الاتجاهات الممكنة كلها. كررت هذه التجربة في هارفرد وبرينستون وموسكو ولندن وبكين – وكانت النتيجة نفسها دائماً.

وهكذا أقدمت طفلة لها من العمر خمس سنوات وتنتمي إلى ثقافة معينة في فعل ما لم يقدر عليه علماء كبار من ثقافة أخرى. فما الذي يفرض هذه الاختلافات الجوهرية في إحدى المقدرات المعرفية؟ مهما كان الأمر مدهشاً فإن السبب يكمن في اختلاف لغة التخاطب.

لقد جرى الإفصاح عن التصورات حول أن الخصوصيات اللغوية قادرة على التأثير على الوظائف المعرفية منذ عقود عدة. وقد تم تأكيدها منذ ثلاثينيات القرن الماضي في أعمال اللغويين الأمريكيين إدوارد سيبير وبنيامين أورف. فبعد أن درسا الفروق بين اللغات توصلا إلى نتيجة مفادها أن المتكلمين بلغات مختلفة يفكرون أيضاً على نحو مختلف. قوبلت هذه التصورات بحماسة كبيرة، غير أنها، يا للأسف، لم تدعم بالمعطيات الموضوعية. ومع

(*) عن مجلة «في عالم العلم» العدد الخامس 2011.
* ليرا بوروديتسكي: باحثة أميريكية في علم النفس.
** عياد عيد: مترجم ـ عضو اتحاد الكتاب العرب.

حلول السبعينيات تخلى الكثيرون من العلماء عن فرضية سيبير وأورف وأحلوا محلها نظرية عمومية التفكير والكلام. لكن اليوم، وبعد مضي عقود عدة، ظهرت مادة فعلية كبيرة تشهد على تكوّن التفكير بتأثير من الخصوصيات اللغوية. إن هذه الحقائق تنقض الفرضية المتقادمة عن عمومية التفكير، وتفتح آفاقاً جذابة جديدة في حقل نشوء التفكير والتصورات عن الواقع. عدا ذلك يمكن أن يكون للنتائج التي يتم التوصل إليها أهمية حقوقية وسياسية وتربوية كبيرة.

تأثير لا جدال فيه

أحصي في العالم أكثر من سبعة آلاف لغة، وكل منها يستلزم تراكيب كلامية خاصة. لنفرض أنني أريد أن أصرح بأنني شاهدت فيلم «العم فانيا في الشارع رقم 42». في لغة الميان المنتشرة في بابوا – غوينا الجديدة سيعرف الجليس تبعاً للفعل الذي أستخدمه أنني شاهدت الفلم الآن أو بالأمس أو قبل وقت بعيد. أما في اللغة الإندونيسية فعلى العكس، إذ لن يكون واضحاً من بناء الفعل حتى إن كنت شاهدته أم أنني أهم قريباً بمشاهدته. سيتضح في اللغة الروسية من الفعل الجنس الذي أنتمي إليه، وسأضطر في اللهجة المندرينية في اللغة الصينية إلى أن أحدد كلمة العم أو الخال، وإن كانت الصلة صلة رحم أم عن طريق الزواج - وفي كل حال من هذه الأحوال يستخدم اسم موصوف محدد. أما في لغة البيراخا (التي تتكلم بها قبيلة صغيرة تعيش عند أحد فروع الأمازون) فلن أستطيع حتى أن أقول «الشارع رقم 42» - إذ ليس فيها أعداد بل تحتوي فقط على مفهومي «قليل» و«كثير».

الفوارق بين اللغات المختلفة لا تعد ولا تحصى، لكن هذا لا يعني بعد أن حاملي اللغات المختلفة يفكرون على نحو مختلف. فهل في مقدورنا أن نؤكد أن المتكلمين بلغة الميان أو الإندونيسية أو الروسية أو المندرينية أو البيراخا يتقبلون في نهاية المطاف الظواهر نفسها ويتذكرونها ويدركونها على نحو مختلف؟ إننا نملك الحق بناء على المعطيات التي حصلت عليها في مختبري وفي مختبرات عدة أخرى في أن نقر بأن اللغة تؤثر حقاً في أساسيات المعرفة الإنسانية مثل التصورات عن الفضاء والزمن والعلاقات السببية – النتيجية في التواصل مع الناس الآخرين.

لنعد إلى بورمبورو. في لغة التايور (كوك – تايوره) التي يتحدثون بها في هذه المنطقة لا وجود لمفاهيم فراغية مثل «اليسار» و«اليمين». إنهم يستخدمون عوضاً عنها الاتجاهات المطلقة – شمال، جنوب، شرق، غرب. يستخدم مثل هذه المفاهيم أيضاً في اللغة الإنكليزية طبعاً، لكن فقط من أجل الدلالة على الاتجاهات العامة. إننا، مثلاً، لن نقول أبداً: «انظروا، لقد وضعوا ملاعق السلطة إلى الجنوب الشرقي من ملاعق الغداء!». لكنهم في لغة التايور، على العكس من ذلك، يستخدمون الدلالات على الاتجاهات المطلقة في المستوى الفراغي: يمكننا، مثلاً، أن نقول إن «الفنجان يقع إلى الجنوب الشرقي من الصحن» أو «يقف الصبي إلى الجنوب من ميري – شقيقي». وبذلك، لكي نتخاطب بهذه اللغة علينا دائماً أن نحدد الاتجاهات في الفراغ.

تشير المعطيات التي توافرت خلال العقدين الأخيرين في الأعمال المبتكرة لستيفين ليفينسون

من معهد ماكس بلانكا لعلوم النفس اللغوية (نيميغين – هولندا) ولجون هيفلند من جامعة كاليفورنيا في ساندييغو إلى أن حاملي اللغات التي تستخدم فيها رموز الاتجاهات المطلقة يستطيعون تحديد الاتجاهات في الفراغ على نحو يثير الدهشة، حتى في الأماكن والمباني التي لا يعرفونها. إنهم يفعلون ذلك أفضل من القاطنين الدائمين المتكلمين باللغات العادية: زد على ذلك أن إمكاناتهم تمتد إلى خارج أطر التصورات العلمية المعاصرة! يبدو أن مقدراتهم المدهشة إلى هذا الحد تتكون بتأثير من خصوصيات لغتهم.

تجر خصوصية إدراك الفراغ وراءها إدراكاً خاصاً للوقت. لقد أظهرنا بالتحديد، أنا وزميلتي إيليس غيبه من جامعة كاليفورنيا في بريكلي، للمتكلمين بلغة التايور سلسلة من الصور التي تبين أحداثاً مختلفة متغيرة الأزمنة – كيف ينمو الإنسان، وكيف ينمو التمساح، وكيف يؤكل الموز. طلبنا منهم بعد خلط الصور أن يعيدوا ترتيبها ضمن تسلسل زمني معين.

كان كل مشارك يقوم بهذا الإجراء مرتين، وكنا في المرة الثانية نجلسه ووجه إلى الجهة المعاكسة. لو اقترحنا هذه المهمة على شخص إنكليزي لصف الصور من اليسار إلى اليمين، أما المتحدث بالعربية فكان سيصفها من اليمين إلى اليسار: إذن فخصوصية الكتابة تحدد تصورنا عن التنظيم الزمني. وفي حال المتحدثين بلغة التايور كانت الصورة مغايرة. لقد صفوا الصور بالاتجاه من الشرق إلى الغرب. بكلمات أخرى، إذا كانوا قد جلسوا ووجوههم نحو الجنوب فإنهم رتبوا الصور من اليسار إلى اليمين؛ وحين جلسوا ووجوههم إلى الشمال رتبوها من اليمين إلى اليسار؛ وإذا كانت وجوههم إلى الشرق فإنهم يرتبونها باتجاههم، وإلى الغرب – ابتداء منهم. لم نخبر أياً من الخاضعين للتجربة كيف تحدد اتجاهات الضوء: لقد عرفوا ذلك من تلقاء أنفسهم، واستعملوا بعفوية تحديد الاتجاهات في الفراغ من أجل تشكيل البنية الزمنية.

ثمة فوارق أخرى في التصورات عن الزمن في الثقافات المختلفة. يقولون في اللغة الإنكليزية إن المستقبل في الأمام، والماضي في الخلف. عام 2010 اكتشف الباحث ليندن مايلس ومساعده من جامعة إبردين (اسكوتلندا) أن المتكلمين بالإنكليزية عند التفكير في المستقبل ينحنون غير واعين إلى الأمام، وعند التفكير بالماضي ينحنون إلى الخلف. لكن في لغة الأيمار التي يتكلم بها سكان الأند، على العكس، المستقبل في الخلف والماضي في الأمام. ثمَّ تختلف أيضاً حركاتهم الإيمائية: لقد بين عام 2006 رافائيل نونس من فرع جامعة كاليفورنيا في سان دييغو وإيفا سويتر من فرع الجامعة نفسها في بيركلي أن هنود الأيمار ينحنون إلى الأمام عند تذكر الماضي وإلى الخلف حين يذكرون المستقبل.

كل فرد يتذكر بطريقته الخاصة.

يصف حاملو اللغات المختلفة الأحداث بطرائقهم الخاصة، وفي النتيجة يتذكرون دور المشاركين فيها على نحو مختلف. يمثل كل حادث من الأحداث، حتى العابر منها، بنية منطقية معقدة، لا تتطلب بحسب إعادة بناء دقيقة، بل تأويلاً أيضاً. لنأخذ مثلاً القصة

المعروفة عن كيف جرح بالمصادفة نائب الرئيس الأمريكي السابق ديك تشيني صديقه غاري ويتينغتون في أثناء رحلة الصيد عوضاً عن السمانة. يمكن وصف هذه الحادثة بطرائق مختلفة. يمكننا، مثلاً، أن نقول: «جرح تشني ويتينغتون»، وسيدل هذا مباشرة على أن تشيني هو المذنب في الحادث. يمكن القول بطريقة أخرى إن «وينتينغتون قد جُرح من قبل تشيني»، وهذا يبعد تشيني قليلاً عن الحدث. يمكننا أن نبقي تشيني خارج المشهد تماماً بأن نكتب: «لقد جرح وينتينغتون». عبَّر تشيني نفسه على النحو التالي (حرفياً): «إنني في نهاية الأمر الشخص الذي ضغط على زناد السلاح فأطلق الطلقة التي جرحت غاري»، مباعداً بذلك بينه وبين الحادثة المؤسفة بسلسلة طويلة من الأحداث. أما رئيس الولايات المتحدة السابق جورج بوش فوضع صيغة أمهر: «لقد سمع صوت خفقان الأجنحة فالتفت وأطلق النار ليرى أن صديقه جريح»، محولاً بجملة واحدة تشيني من المذنب في الحادثة المؤسفة إلى شاهد عادي.

مثل هذه الألاعيب الكلامية السحرية نادراً ما تترك أثرها في الأميركيين، ما دامت المسألة الأساسية لدى الأطفال والسياسيين في الدول المتكلمة بالإنكليزية هي التهرب من المسؤولية، والتركيبات غير المحددة تصدح كشيء ما موارب بوضوح. يفضل المتحدثون بالإنكليزية تلك التراكيب التي تدل مباشرة على دور هذا الشخص أو ذاك في الحدث. مثل: «كسر جون المزهرية». أما اليابانيون والإسبان فعلى العكس من ذلك يستخدمون في أغلب الأحوال البنى غير المحددة، مثل «كُسِرت المزهرية». (بالإسبانية - **se rompiy el florero**)، التي لا يتم الحديث فيها مباشرة عن المذنب في الحدث.

اكتشفنا، أنا والطالبة كاتلين فوزي، أن مثل هذه الخصوصيات اللغوية يمكن أن تسبب الاختلافات في إعادة إنتاج الأحداث وتذكُّرِ الشهود لها. أظهرنا في أثناء دراساتنا التي نشرنا نتائجها عام 2010 للأشخاص المتكلمين بالإنكليزية والإسبانية واليابانية مقاطع فيديو يظهر فيها شخصان يفجران البالونات ويكسران البيض ويريقان السوائل – مصادفة في بعض الأحوال، وعمداً في أحوال أخرى. ثم طلبنا منهم أن يتذكروا من كان المذنب تحديداً في الأحداث – كما يجري حين يتم تعرُّف المتهم. كانت النتائج متوقعة من وجهة نظر الخصائص اللغوية. وصف المتكلمون باللغات الثلاث كلها الأحداث المتعمدة مستخدمين تراكيب محددة من نوع: «هذا الذي فجر البالون»، وتذكروا جيداً على نحو متماثل المذنبين. لكن عند تذكر الأحداث التي جرت مصادفة ظهرت اختلافات مميزة. وصف المشتركون المتكلمون باللغتين الأسبانية واليابانية الأحداث بالتراكيب المحددة بدرجة أقل من المتكلمين بالإنكليزية وكان تذكرهم للمذنب في حدوثها أسوأ. لم تكن عموماً مقدرتهم على التذكر سيئة لأنهم في الأحداث المتعمدة دلوا على المذنب بالتأكيد بالدرجة الجيدة نفسها التي تذكره بها المتكلمون بالإنكليزية.

لا تؤثر اللغة في التذكر فقط بل على التعلم أيضاً. بنية أسماء الأعداد في الكثير من اللغات تطابق المنظومة العشرية على نحو أوضح مما في اللغة الإنكليزية (لا توجد في اللغة الصينية مثلاً

استثناءات مثل **eleven** من أجل الرقم أحد عشر و **twelve** من أجل العدد اثني عشر، حيث يتم الإخلال بالقاعدة العامة بإضافة رمز الواحد إلى العدد، أي الأساس – **teen**، يقابلها بالروسية **äöàòü**)، والمتكلمون بها يتعلمون العد على نحو أسرع. إن عدد المقاطع الصوتية في كلمات الأعداد يؤثر في تذكر أرقام الهاتف أو في الحساب الذهني. حتى سن إدراك الانتماء الجنسي يرتبط باللغة، فعام 1983 قارن ألكسندر غيورا الباحث من جامعة ميتشيغان في أن - أربور بين ثلاث مجموعات من الأطفال لغاتهم هي العبرية والإنكليزية والفنلندية. الإشارة إلى الجنس في العبرية واسعة الانتشار جداً (يميزون وفاقاً للجنس حتى الضمير المنفصل «أنت»)، وفي اللغة الفنلندية تستخدم أقل بدرجة محسوسة، أما اللغة الإنكليزية فتحتل موقعاً متوسطاً في هذا الشأن. تبين أن الأطفال الناشئين بين المتكلمين بالعبرية يدركون جنسهم قبل المتكلمين بالفنلندية بعام، بينما شغل الأطفال المتكلمون بالإنكليزية موقعاً متوسطاً.

ماذا يؤثر في ماذا؟

لقد أوردنا فقط بضعة أمثلة جلية عن الفوارق في الوظائف المعرفية لدى المتكلمين بلغات مختلفة. من الطبيعي أن يبرز سؤال: هل تؤثر خصوصيات اللغة في التفكير أم العكس؟ يبدو أن الأمرين صحيحان: ترتبط اللغة بالطريقة التي نفكر بها، لكن ثمة أيضاً تأثير معاكس. تمت البرهنة خلال العقود الأخيرة بمساعدة سلسلة من الدراسات الذكية على أن اللغة تؤدي دوراً لا جدال حوله في تشكيل التفكير. تبين أن تغيير تكوين اللغة يؤثر في الوظائف المعرفية. فتعلم الكلمات الجديدة التي ترمز إلى اللون تؤثر في التمييز بين الظلال، وتؤثر الكلمات التي ترمز إلى الوقت في إدراك الزمن.

ثمة طريقة أخرى لدراسة تأثير اللغة في التفكير، وهي دراسة الناس الذين يتقنون التكلم بلغتين. تبين أن إدراك الواقع يتحدد بدرجة معينة بمسألة أي لغة يتحدث بها هذا الشخص في اللحظة المعينة. بينت دراستان نشرتا عام 2010 أنه حتى صفات أساسية مثل الإعجاب والنفور مرتبطة بذلك..

ما أثار دهشة العلماء هو أن التفضيلات الخفية لدى الأشخاص أنفسهم كانت مختلفة على نحو محسوس باختلاف اللغة التي استخدموها في اللحظة المعنية.

يبدو أن اللغة تؤثر في الوظائف النفسية المتنوعة أكثر مما كان يظن. يستعمل الإنسان الكلام حتى عند تنفيذ مهمات بسيطة مثل التمييز بين الألوان أو حساب النقاط على الشاشة أو تحديد الاتجاهات في غرفة صغيرة. لقد اكتشفنا أننا إذا أعقنا الاستعمال الحر للكلام (الطلب، مثلاً، من الخاضعين للاختبار أن يكرروا باستمرار مقتطفاً من صحيفة)، فإن هذه الوظائف تصاب بالخلل. يسمح هذا لنا بأن نفترض بأن خصوصيات اللغات المختلفة يمكن أن تؤثر في جوانب كثيرة من حياتنا النفسية. وما جرت العادة على تسميته تفكيراً إنما هو جملة معقدة من الوظائف الكلامية وغير الكلامية، وربما لا يكون ثمة كثير من العمليات التفكيرية التي لا تؤثر فيها خصوصيات اللغة.

السمة الأهم للتفكير الإنساني هي الليونة: أي القدرة على إعادة ترتيب التصورات عن الواقع

سريعاً عند تبدله. أحد تجليات هذه الليونة هو تنوع اللغات الإنسانية. ففي كل منها مجموعة فريدة من الوسائل المعرفية وكل منها مؤسس على معارف وتصورات تراكمت في ثقافتها الخاصة على امتداد آلاف السنين. اللغة هي وسيلة إدراك للعالم ومعرفته واستيعابه، وهي الموجه الذي بناه ورعاه أجدادنا، الذي لا يقدر بثمن، في العلاقة المتبادلة مع المحيط، . دراسة تأثير اللغة في التفكير تساعدنا على فهم طريقة صياغتنا للمعرفة عن الواقع وفهم قوانين هذه الصياغة، لنصل إلى ذرا فكرية جديدة أخرى – أي بكلمات أخرى تساعدنا على فهم جوهر ما يجعل منا بشراً.

❑❑